الآداب العربيَّة

في الربع الاول من القرن العشرين

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

القسم الثاني

الآداب العربيَّة من ١٩٠٨—١٩١٨

البحث الاول (تابع)

نظر في الآداب العربية في هذه الحقبة (تابع)

ومن ميزات هذه الحقبة الثانية من القرن العشرين تصرُّف الشعراء باوزان الشعر وذلك انهم لما رأوا انبساط الغربيين في معاني الشعر وانشاءهم في اغراضهِ وتصرُّفهم باوزانهِ شاءوا ان يجاروهم في ذلك لئلَّا تنحصر قرائح الشعراء في دائرة القصائد الثائمة في الدواوين السابقة

واوَّل ما تصرَّفوا فيهِ بحر الرجز لقربهِ من النثر بكثرة جوازاتهِ وبسهولة تقفيتهِ قوافيهِ . كما فعل نابغة العصر المرحوم سليمان البستاني في شعر الالياذة القصصي فتفنَّن في اراجيزهِ اي تفنُّن فرارًا من سأم القارئ ومنهُ عند مطالعة هذا الكتاب لو جرى على طريقة واحدة وقد فعل ذلك دون تعسُّف ونحسن ذوق

ووجد ايضاً الشعراء في الموشَّحات متَّسعاً في نظمهم فاتَّخذوها مثالاً وتصرَّفوا في البحور الستة عشر واوزانها وقسَّموها تقاسيم جديدة في الابيات وفي الادوار وجروا على قوافي متناسقة الى غير ذلك مما ارشدتهُ اليهم قريحتهم فربَّما اجادوا وربَّما اساؤوا وانَّما بيَّنوا ما يستطاع استخراجهُ من كنوز الفنون في الشعر العربي في معالجة الاغراض المعنويَّة العصريَّة كما ترى في الروايات التمثيليَّة والقصود الغنائيَّة

وقد جرى على ذلك اصحاب الشعر العامي ولعلَّهم سبقوا الشعراء النظاميين فهَّدوا

فهم الطريق . ولدينا من دواوينهم مجاميع سبقت عصرنا تدلّ على استنباطهم لاوزان شعرية جديدة لا تخلو من محاسن المنظومات ولا ينقصها إلّا ضبطها على القواعد اللغوية والعروض وتجريدها من بعض الفاظ العامّة

ومما سبق اليه أدباء عصرنا فابتكروه دون مثال في امتنا ما دعوهُ بالنثر الشعري كأنهُ جامع بين خواصّ النثر والنظم . أمّا النثر فلأنهُ على غير وزن من اوزان البحور . وامّا النظم فلانهم يقسمون مُتاطعهُ ثلاث ورُباع وخُماس وازيد دون مراعاة اعدادها ويسبكونها سبكاً موشّحاً بالمعاني الشعرية

وهذه الطريقة استعارها على ظننا الكتبة المحدثون كأمين الريحاني وجبران خليل جبران ومن جرى مجراهما عن الكتبة الغربيّين ولاسيما الانكليز في ما يدعونهُ بالشعر الابيض غير المقفّى وفي بعض كتاباتهم الشعرية المعاني غير المقيّدة بالاوزان . ولسنا لننفي هذه الطريقة الكتابيّة التي لا تخلو من مَسحة من الجمال في بعض الظروف اللائمة اذا رُوعي فيها الذوق الصحيح ولم يَشنها الاستهتار وتلاحمت معانيها وتنسّقت باشكال البديع السهلة المنسجمة ولم يُفرَط الاتساع فيها فتصبح لَغطاً وثرثرة

على انّنا كثيراً ما لقينا في هذا الشعر المنثور قشرة مزوّقة ليس تحتها لباب وربما قفز صاحبها من معنًى لطيف الى قول بذيء سخيف او كرّر الالفاظ دون جدوى بل بتعسّف ظاهر . ومن هذا الشكل كثير في المروّجين للشعر المنثور من مختلفات الريحاني وجبران وتبعتهما فلا تكاد تجد في كتاباتهم شيئاً ممّا تصبو اليه النفس في الشعر الموزون الحرّ من رقّة وشعور وتأثير خذ مثلاً وصف الريحاني للثورة :

ويومها الغضب الصبب . وليلها المنير العجيب
وعلمها الآتي يمذج بميزه الرقيب
وصوت فرضاها الرهيب . من هتاف وطرب وغضب . وزئير وعدالة ونحيب
وطماة الزمان تصير رماداً . واخيارهُ يحملون الصليب
ويل يومئذٍ للظالمين . للمستكبرين والمفسدين
هو يوم من السنين . بل ساعة من يوم الدين
ويل يومئذٍ الظالمين

هي الثورة ويومها العبوس الرهيب

الوية كالشفق فرج . تثير القريب . تثير البعيد
وطبول تردّد صدى شديد عجيب
وابواق تنادي كلّ سميع مجيب
وشرر عيون القوم يرمي باللهيب
ونار تسأل هل من مزيد . وسيف يهيب . وهول يشيب
ويل يومئذٍ للظالمين . ويل لهم من كلّ مريد مهين
طلّاب للحقّ عنيد مدين . ويل للمستهزئين والمستأمنين
هي ساعة الظالمين

وهي طويلة على هذه الشاكلة . ولو اردنا انتقادها وبيان نقائصها الفنّية والشعرية والمعنوية لطال بنا الكلام . وقس عليها فصولاً عديدة من جنسها اعني طنطنة الفاظ وشقشقة لسان واذا حاول الاديب استخلاص معانيها بقي متضعضعاً مرتاباً

وكم مثلها في كتابات جبران . دونك فصلهُ المعنون بالارض :

تمزّق الارض من الارض كرهاً وقسراً
ثمّ تسير الارض فوق الارض تيهاً وكبراً
وتقيم الارض من الارض القصور والبروج والمياكل
وتنشئ الارض في الارض الاساطير والتعاليم والشرائع
ثمّ تلّ الارض اعمال الارض فتحوك من هالات الارض الاشباح والاوهام والاحلام
ثم يراود ناسُ الارض اجفان الارض فتنام نوماً هادئاً عميقاً ابدياً
ثم تنادي الارض قائلة للارض
انا ارحمه وانا اقبر وسأبقى رحماً وقبراً حتى تضمحلّ الكواكب وتتحوّل الشمس الى رماد

فمصري هذه الفاظ لا شيء فيها من منظوم رائق ولا منثور شائق هي اقرب الى الهذيان والسخف منها الى الكلام المعقول . ولو شئنا لجمعنا من هذا الصنف صفحات تضيق عنها اعداد المشرق . وشتّان بينها وبين فصول أخرى بديعة لبعض الكتبة البلغاء كمثل فصل رويناهُ في المشرق عنوانهُ « الموسيقى » لصديقنا وفخر كليّتنا الاديب يوسف افندي غصوب (راجع كتابهُ اخلاق ومشاهد ص ١١٧) وكفصله « ايها الصليب » (المشرق ٢٢ [١٩٢٤] : ١٦٣) فاذا استثنينا هذه الفصول الرائعة التي عرف صاحبها من اين يؤكل الكتف لتعذّرنا على قول الكاتب الاديب مصطفى افندي صادق

الرافعي في عدد المقتطف الاخير (يناير ١٩٢٦ ص ٣١)

نشأ في ايامنا ما يسمونهُ «الشعر المنثور» وهي تسمية تدلُّ على جهل واضعيها ومَن برضاها لنفسهِ ؟ فليس يضيق النثر بالمعاني الشعريَّة ولا هو قد خلا منها في تاريخ الادب. ولكن سرَّ هذه التسمية انَّ الشعر العربي صناعة موسيقية دقيقة يظهر فيها الاختلال لأوهى علَّةٍ ولأيسر سبب ولا يوفَّق الى سبك المعاني فيها إلَّا من امدَّهُ الله بأصلح طبع وأسلم ذوق وأفصح بيان ، فمن اجل ذلك لايحتمل شيئًا من سخف اللفظ او فساد العبارة او ضعف التأليف. . . غير انَّ النثر يحتمل كل اسلوب وما من صورة فيهِ الَّا ودونها صورة الى ان تنتهي الى العاميّ الساقط والسوقيّ البارد ومن شأنهِ ان ينبسط وينقبض على ما شئتَ منهُ ، وما يتَّفق فيهِ من الحسن الشعري فانَّما هو كالذي يتَّفق في صوت المُطرب حين يتكلَّم لا حين يتغنَّى. فمن قال «الشعر المنثور» فأعلم انَّ معناهُ عجزُ الكاتب عن الشعر من ناحيةٍ وادَّعاؤهُ من ناحيةٍ اخرى

وقد آثر البعض ان يدعوا هذه الطريقة الكتابيَّة «بالادب الجديد» فنقول انَّ هذه الجدَّة لا تزيدهُ حسناً الَّا اذا جمعت تلك الصفات التي يمتاز بها انشاء الكتبة البارعاء الحسنة السبك المتناسقة الالفاظ المنسجمة المعاني التي لا تتراكم فيها التشابيه على غير جدوى وتتكرَّر الالفاظ بلا معنى وعليهِ لم نستحبّ ما اختارهُ صاحب الادب الجديد للآنسة مي في العيون

العيون : تلك الاحداق الفاتنة في الوجوه كتماويذ من حلك وليين
تلك المياه الجائلة بين الاشفار والاحداب كجيرات تتطفَّن بالشواطئ واشجار الحور
العيون الرماديَّة بأحلامها . والعيون الزرقاء بتنوّعها
العيون السمائيَّة بحلاوتها . والعيون البنيَّة بجاذبيَّتها
والعيون الفاتنة بما يتناوبها من قوَّة وعذوبة

جميع العيون : تلك التي تذكّرك بصفاء السماء
وتلك التي يركد فيها عمق اليوم (كذا)
وتلك التي تريك مفاوز الصحراء وسرابها
وتلك التي تمرّح بخيالك في ملكوت الثيري كله جاء
وتلك التي تمرّ فيها سحائب مبرقة مهضبة . . . . الخ

فان كان هذا هو الادب الجديد فنحن في غنًى عنهُ . على انَّ للآنسة مي كتابات كثيرة افضل من هذا الشعر المنثور (لهُ بقيَّة)